طانيوس نجيم. — في / الترجمة تفاعل غيرية وذاتية :Revue des lettres et de traduction. — N’ 3 (1997), ٥-٢٥ ص.

I. Langage et langues II. Traduction

PER L1037 / FL70588P

# الترجمة تفاعل غيريّة وذاتيّة

طانيوس نجيم
الجامعة اللبنانية

**مقدمة**

آخر ما توصّلت إليه النظريات الحديثة في الترجمة، لا سيما نظرية المعنى، ان الترجمة الأكثر وفاءً للأصل وإبداعاً في جمال التعبير ودقته هي التي تتم على ثلاث مراحل: الفهم الوافي لمقال الغير والفصل الذهني بين الفكرة والتعبير الأصلي عنها ومن ثم إعادة صياغتها كما لو كانت تولد من جديد في اللغة الثانية. طرحنا أن هذه المراحل التقنية تنطوي على مبادىء أساسية يؤدي اعتمادها إلى أفضل النتائج على صعيد التعدد الثقافي ضمن الجماعة الواحدة والعلاقات بين كافة الجماعات والحضارات.

في هذه الحقبة من تاريخ البشرية تبرز لدى الأفراد والجماعات نزعتان متناقضتان في الظاهر ومتكاملتان في الجوهر. من جهة يعمل كل فرد على تأكيد ذاتيته وفرادتها واستقلاليتها. وتعمل كذلك كل جماعة على إثبات شخصيتها وخصوصيتها وتميزها. من جهة ثانية لا يعي الإنسان ذاته بمعزل عن الغير، إذ ينطوي وعي الذات على وعي تميزها عن الآخرين وانفتاحها عليهم وتحديد هويتها وموقعها بالنسبة إليهم. وفي السياق عينه، تتمسك كل جماعة بما يميّزها عن غيرها. لكن هذه الميزة النوعية فيها والمنفيّة عن غيرها تفصل بينها وبين مثيلاتها ضمن قواسم مشتركة وعلاقات تقارب وتباعد واختلاف وتماثل.

إزاء هذا الواقع القائم على الذاتية والغيرية تبرز ضرورة الترجمة كوسيلة تواصل بين الحضارات تحافظ على ذاتية كل منها وترفدها بعطاءات من غيرها قيّمة

ومغنية. ولا غروَ فالقرآن الكريم الذي يلحظ التنوّع بين البشر يدعوهم إلى التعارف والتصادق: «يا أيّها الناس، أنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير»[١]. إذا كان واقع البشر التنوّع والإختلاف فالغاية المنشودة أن يعملوا على التعارف لأن التعارف سبيلهم إلى مرضاة الله والتكامل وتبادل الغنى.

أما الطرق التي تؤدي إلى هذا التعارف فعديدة وفي مقدمتها اتقان اللغات بلوغاً إلى فهم الآخر والقدرة على إفهامه ما يغيب عنه من الذات وعنديّاتها المتميزة. على هذا الصعيد تبرز الترجمة أيضاً كأنجع الوسائل لتفاهم الأفراد والتلاقح الفكري للجماعات وتواصل الحضارات. فالترجمة، إذا ما صفت نوايا المترجمين والمترجم عنهم ولهم، وإذا ما استقامت شروطها العلميّة والفنيّة، لأجدى السبل إلى التعارف والتثاقف والتحاب. لسنا بحاجة، بعد هذا، إلى التنويه بأهميّة الترجمة. «لا غنى عنها لأي بلاد تودّ العيش والإستمرار والبقاء. فالترجمة، بسبب الحواجز اللغوية المتنوعة، كما درجت العادة على القول، تسمح بالمعرفة والفهم وإعادة الإستيعاب التي تؤدي إلى امتلاك المعلومات والتطورات والمعطيات العلمية والتقنية الحديثة التي نحتاجها لعيش مستجدات الحداثة في كافة الميادين، والتي نريد ويجب علينا الحصول عليها لتحسين وجودنا الجماعي. نحن نحيا أكثر فأكثر في مجال دولي متشابك اللغات والحضارات: ولا يقتصر الواجب على التواصل مع الآخر، بل يقتضي الأمر أن يعرف الإنسان كيف يتلقى من الآخر ما هو هام ومجدٍ له وللآخرين»[٢].

إذا ما استعرضنا عملية الترجمة والمراحل التي تمرّ بها، لرأينا كيف أنها فعل تأكيد للغير في غيريته وللذاتية في خصوصيتها ولقابلية الذاتية والغيرية للإلتقاء على قواسم إنسانية مشتركة.

---

(١)- القرآن الكريم، الآية ١٣، سورة الحجرات.

(٢)- Pierrette Bouillon - André Clas, *La Traductique*, les Presses de l'Université de Montréal, AUPELF / UREF, Canada, 1993, p. 11.

## ١- الترجمة والغيرية

لا ترجمة لولا الغيرية، الغيرية في ما يُترجَم ومن يُترجِم، الغيرية بين لغة المؤلف ولغة المترجم، الغيرية في النص ومحتواه وكل ما ينطوي عليه من خصوصيات ورؤى... بالفعل لو لم يختلف الناس الواحد عن الآخر ويتصف كل فرد بخصوصية تميزه، ولو لم تتعدد الثقافات ضمن الحضارة الواحدة، والحضارات ضمن العالم الواحد، لما كان من حاجة إلى الترجمة. إذا كان الإختلاف مصدر غنى لمن يرى فيه دعوة ربانيّة إلى التعارف ومنطلقاً إلى الإغناء والإغتناء، فهو قد يكون سبب تنابذ وتخاصم وفرقة، بل منطلقاً إلى الإنغلاق والإنعزال إذا لم يكن التكابر والإستعلاء وتبادل الأحقاد والعداء. يطلعنا الكتاب المقدس على أن الله عندما غضب على المكابرين في برج بابل، بلبل السنتهم فأصبحوا يتخاطبون ولكن دون أن يفهم واحدهم الآخر[٣]. في هذا الواقع، تتنافر الذاتية والغيرية وتنغلق الواحدة على الأخرى فيصبح الآخر المنافس «للأنا» أو الخصم أو العدو الذي تقضي المصلحة الفردية المتهورة العمياء بالقضاء عليه، وفي أحسن الحالات باستعباده في نطاق علاقة بين سيد ومسود، دونما تطلع إلى إمكان التلاقي معه والتعاون ضمن علاقة قوامها الأساسَي التآخي والتكامل.

في العلاقة العدائية رفض للترجَمة باعتبار أنها وسيلة هيمنة ثقافية. وفي علاقة التآخي، دعوة واجبة إلى الترجمة على أنها الدواء لداء البلبلة والإنقسام والطريق القويم إلى التفاهم واحترام الغيرية والذاتية على السواء. فالكلمة، بالرجوع إلى جذورها في اللغات الأجنبية ...translation, traduction, metaphorein، تعني: «عبوراً من . . . إلى»، وانتقالاً عبرها إلى ما غير منطلقها أو ما بعده.

إذن، من الموجبات الأساسية لهذا العبور والإنتقال واقع الإختلاف والتعددية بين الناس وحاجاتهم إلى التواصل والتفاهم. إلا أن العملية تقتضي في بدايتها فهماً للآخر بما هو آخر من حيث اللغة وكل ما تحمله هذه اللغة من معطيات ثقافية وأنظمة

---

(٣)- سفر التكوين، فصل ١١.

وجودية مختلفة. طبعاً لا يمكن لهذا الفهم أن يكون كاملاً وكلياً، بل هو مثال أعلى يحاول التائق إليه أن يقاربه ما استطاع إليه سبيلاً. هذه حقيقة تؤكّدها طبيعة النصوص الشعرية والأدبية ولا تغيب حتى عن النصوص العلمية التي تبقى، على الرغم من شمولية لغتها الكمية ومصطلحاتها الرمزية ودلالاتها الموضوعية والمجردة، مرتبطة بشكل أو بآخر بالمناخ الثقافي والحاجات والتطلعات السائدة في المجتمعات التي تنتجها. زد على ذلك أنه يصعب على المرء التجرّد عن ذاته أو تخطّيها ليتماهى مع ذات الآخر. فالقارىء، كل قارىء، لا سيما المترجم مدعو إلى تناسي ذاته ليتمكن من عيش تجربة الآخر في نصّه، بموضوعية وصدق علمي. وأصعب ما ينطوي عليه تحقيق هذه الدعوة أن يبلغ المرء درجة القدرة على التخلي عن الذاتية في محاولة فهم الغيرية، لأن هذا التخلّي نفسه تقوم به الذاتيّة ولا بدّ لبصماتها من طبعه بشكل أو بآخر. إزاء هذا الواقع، يصعب الفهم التام لأي نص منبثق عن مصادر غير مصادرنا وفي لغات غير لغتنا الأم. بيد أن الصعوبة لا تعني الإستحالة، وهذه لا تعفي من الجهد الجهيد لتأمين أكبر قدر من الفهم واستيعاب الغير على حقيقته الغيرية إلى أبعد وأوسع ما يمكن أن يتوصّل إليه الإستيعاب.

المهم أن يطمح المترجم إلى إدراك الحد الأقصى من الفهم وأن يقرن الرغبة الصادقة بالجهود الوافية والفعّالة وأن ينتهج الطرق السليمة لبلوغ الأرب؛ ولا ضير إذا كانت الترجمة حافزاً إلى اتقان لغات عديدة، لا مبرراً للإتكال على المترجمين والإستعاضة عن معرفة اللغات وعن الثقافة المتعددة الروافد والأبعاد بأحاديّة فقيرة ومفقرة.

تنطلق الترجمة إذن من القناعة بأن الغير، على الرغم من غيريته بل بسببها، يشكل مصدر غنىً للذاتية. ولئن امتزج خيره بشره، فلا يحتّم ذلك الأخذ بسوئه كما بصلاحه ولا الإكتفاء بالسوء كما يحصل في غالب الأحيان لدى مقلدي الغرب ومترجمي أنماطه الأخلاقية ومبتكراته التقنية. بين الذات والآخر علاقة بنيويّة، أكان ذلك على الصعيد الفردي أم الجماعي. فالكائنات مترابطة فيما بينها سيّان أفرز هذا الترابط خصاماً أم وئاماً. ولقد أصبح من المسلّم به اليوم أن الإنسان كائن علائقي، وأن العلاقة مع الآخرين ومع العالم في صميم بنيته. لا حاجة للعودة إلى تحديد الإنسان بالكائن السياسي مع أرسطو. حسبنا تحديده على الطريقة

القديمة المتجددة مع Ferdinand de Saussure بالكائن الإجتماعي الناطق، ومع البنيويين بالكائن ملتقى البنى، ومع Maurice Merleau-Ponty بالكائن المشترك un être-en-commun - avec autrui - dans le monde مع الآخرين في العالم، ما يدل على الإرتباط الوثيق بين الذات والآخر. لا وجود لأي منهما دون الثاني لأنهما متلازمان، شكلاً ووجوداً، يرسم كل منهما حدود الثاني ويستدعيه لأن وجوده مرتبط به. يعي الفرد والجماعة ذاتهما بتمييزها عن الآخرين ويحدّدان موقعها بالنسبة إليهم. فالذات ذات خصوصية بقدر ما يكون تحققها متميزاً عن تحقق ذات الغير، والآخر آخر بقدر ما يختلف عن تحقق الذات. ولكن دون أن ينتفي إشتراك كليهما في العمق بالجوهر الإنساني نفسه. من هنا إمكان ارتسام العلاقة البنيوية بين الذات والآخر في كل حالة بطريقة خاصة تتأثر بكل منهما وحيثياته ومحيطه النفسي والإجتماعي.

هكذا تفترض الترجمة في بدء عمليتها المثلثة المراحل فهم الآخر على حقيقته دونما مركبات نقص أو استعلاء ولا أحكام مسبقة رافضة أو محبّذة. ذلك يفسح المجال لإتّباع الفهم بتقييم مجرد وموضوعي يتم على أساسه الإنتقال إلى المرحلتين اللاحقتين، قبل الوصول إلى ما يمكن تسميته مع المفكر التونسي فتحي التريكي «التعقّلية» القائمة على التوفيق بين العقل والأخلاقيات. يقتضي التوضيح على هذا المستوى من التحليل، منعاً للإلتباس والتناقض، أن الفهم الواجب للآخر لا يعني بالضرورة تقليده ولا التماهي معه والإرتهان إليه كما سوف نرى لاحقاً. كذلك لا يحتّم الفهم الواجب للآخر واحترام غيريته، اعتماد الترجمة الحرفية لنصّه. فإن الترجمة الحرفية، مهما ادّعت الوفاء للأصل والإقتداء التام به قد تنجرّ بسبب حرفيتها، إلى خيانة المعادلات المعنوية التي تختلف من لغة إلى أخرى، أكان ذلك على صعيد الكلمات ومعانيها أم على صعيد سائر البنى اللغوية ومدلولاتها. بعيداً عن الحرفية المتزمّتة، يعني فهم الآخر احترام رأيه والوقوف على حيثياته ودقائقه، كما يمكن أن يعني، ضماناً لموضوعية هذا الفهم وصحّته، تناسي الذاتية مرحلياً على طريقة «هوسرل» في الـ «Epochè» أو الوضع بين قوسين، لكن ذلك ليس تخلياً نهائياً عن الذاتية ولا قبولاً مغفّلاً بكافة طروحات الغير. لا يعدو الأمر كونه شرطاً أولياً لا بدّ منه لتحقيق الطابع العلمي للترجمة.

لسنا ملزمين بترجمة كل ما لدى الآخرين. لكننا إذا تمكّنا من الإطلاع على كل ما لديهم، وقد يكون دون ذلك عقبات من الغير أنفسهم، عند ذلك يسعنا انتقاء ما يناسبنا لترجمته والإفادة منه. والمترجم الذي يحترم الغيرية ليس كـ «المترجم التحصيلي. . . الذي ينقل النص الفلسفي على مقتضى التحصيل، لا فارق بينه وبين المتعلم إلا أن هذا يتلقى تعلّمه بقصد التمكّن فيه، وهو يتلقاه بقصد تمكين المتلقّي منه. وحينما يجد المتلقي بين يديه نقولاً تحمل على تحصيل الفلسفة كما يحصّل العلم، ويأخذ في التزوّد منها على مقتضى هذا التحصيل، فإنه لا محالة سائر في طريق لا يوصله إلى اكتساب القدرة على التفلسف، وإنما يفضي به إلى الجمود على ما اختزنه في ذاكرته من مضامين المنقول، معتقداً أنها علم يجب حفظه، لا فكر يجوز رفضه، وليس بدعاً حينذاك أن تطغى على ممارسته الفلسفية صيغة التكرار والإجترار، وألا يتعدّى أفق اجتهاداته فيها حد التوفيق والتلفيق»[٤]. والمترجم الذي يحترم الغيرية ليس كـ «المترجم التوصيلي الذي ينقل النص الفلسفي على مقتضى التوصيل، لا فارق بينه وبين الراوي إلاّ أن هذا ينقل ما علم به بقصد إخبار المتلقي، بينما هو ينقله إليه بقصد تعليمه. من هنا يتبين أن أثر الترجمة التوصيلية في المتلقي لا يختلف كثيراً عن أثر الترجمة التحصيلية فيه، فكلتاهما تحمله على أن يتلقى تعليمه الفلسفي منها، فيصير إلى التزوّد منها كما نتزوّد من مصدر لا غناء عنه، إذ يحرص على أن لا يفوته من الفاظه ولا من مضامينه شيء، منتهياً إلى التمسّك بما استوعبه عقله منه، لا ينتقل أبداً عنه إلى ما يخالفه، وقد لا يتصوّر إمكان مخالفته»[٥].

يبقى أننا عندما نفهم نصاً معيناً كما هو، لا كما نريد نحن أن يكون، ونقرّر أن نترجمه، تفرض علينا الموضوعية العلمية أن نحترم غيريته ونترجمه وحدة كاملة غير منقوصة ليتمّ الإحتكاك فيما بعد بين غيريته وذاتية مجتمعنا، احتكاكاً يؤدي حكماً إلى التطوّر والتقدّم، أكان ذلك على سبيل التفاعل السلبي أم الإيجابي. بذهنية الثقة والإحترام المتبادل والتحرر من العقد نستطيع التفاعل مع الغير على قدم

---

(٤)- د. طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة: ١- الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥، ص. ٩٠٥.

(٥)- المرجع نفسه، ص. ٣٣٦.

المساواة. نجهد في التعرّف إليهم كما هم لا كما نتوهمهم أو نريدهم. وعندما تتحقّق لنا هذه المعرفة الموضوعية والمنزهة عن الأغراض، نغتني بما هو إيجابي بنّاء ونعتبر بما هو سلبي هدّام، بل نرتقي إلى المعرفة الإنسانية الشاملة.

## ٢- القاسم الإنساني المشترك

حسب نظرية المعنى في الترجمة، بعد فهم المعاني في اللغة وقبل التعبير عنها، هناك مرحلة جوهريّة لا بدّ منها لإنجاح العمليّة كلهّا والإحتراز من مخاطر الترجمة الحرفية والترجمة الحرة التي تبتعد عن الأصل وتتصرّف به على هواها. هذه المرحلة تقوم على الفصل بين المعنى والتعبير الخارجي الشفهي أو الخطي. تقضي، «بعد استخلاص معنى المفاهيم، بالتخلي عن القالب الأصلي للتعبير عن الرسالة في اللغة الثانية وفق عاداتها وإطارها المعرفي وليس انطلاقاً من تطابقات لغوية مسبقة بين الإصطلاحات التعبيريّة»[٦]. تهتم الترجمة قبل أي شيء آخر بالمعنى، لذلك «تفترض مرحلة تصور ذهني للمفاهيم تفصل بين اللغتين وتسبق تعبير المترجم وتوجهه»[٧]. صحيح أن الفكرة واللفظة مرتبطتان جوهرياً إذ لا وجود للفكرة إلا من خلال التعبير الذي يحققها «فالكتابة في العالم المثالي (غير الموجود) هي أفكار تخضع اللغة لها، أما في عالم الواقع فهي أفكار لا تنفصل عن اللغة بحيث يكون من المحال تصوّر الفكرة خارج اللغة أو تصوّر اللغة بدون الفكرة»[٨].

لكن الإرتباط بين الفكرة واللغة لا يعدو كونه ارتباطاً افتراضياً. «علاقة المعاني بالألفاظ ليست علاقة الروح بالجسد، كما كان نقاد العرب القُدامى يقولون، ولكنها علاقة نظريّة أو افتراضيّة (وهي بالقطع تعسفيّة arbitrary) كما

---

(٦)- Fortunato Israël, Traduction littéraire et théorie du sens, in Marianne Lederer, *Etudes traductologiques en hommage à Danica Seleskovitch*, Minard, Paris, 1990, p. 36-37.

(٧)- Marianne Lederer, *Etudes traductologiques en hommage à Danica Seleskovitch*, Minard, Paris, 1990, préface p. 6.

(٨)- د. محمّد عناني، فن الترجمة، مكتبة لبنان، ١٩٩٤، ص ٦.

يذهب إلى ذلك علماء اللغة المحدثون»[٩]. في السياق نفسه، تستوقفنا آراء فلسفية عن تجريد الفكر والحقيقة من الصيغة اللفظيّة: «لما كان الفكر نسقاً من المعاني المجرّدة، فإن نقل هذا النسق المعنوي إلى الغير بواسطة الألفاظ، لا يجعل لهذه الألفاظ تأثيراً في هذه المضامين المعنوية، ولا يورثها تغييراً لوصفها التجريدي، وإنما قصارى الألفاظ أن تنزل من هذه المعاني منزلة أصوات تبلّغها إلى المسامع، أو منزلة حروف تجلب لها الأنظار، وهذا يعني أن لباس النطق لا توجبه إلاّ ضرورة السمع كما أن لباس الكتابة لا توجبه إلا ضرورة النظر، أما الفكر الذي يرتدي هذين اللباسين، فإنه يبقى في ذاته غير منفعل بهما ومستقلاً عنهما، حتى أن ماهيته لا تدرك في كمالها إلاّ بتجريده منهما تمام التجريد بفضل أعمال العقل»[١٠].

في الواقع، هناك معنى في الذهن ومعنى في اللفظ، ولا بد من مرحلة انتقاليّة تقوم على فصل المعنى الذهني عن المعنى اللفظي ليتحرّر العقل من اللفظ في اللغة الأم ويتمكّن من التعبير عن الفكرة نفسها باللغة الثانية. فسخ الإرتباط الأول بين الفكرة والتعبير الخاص عنها ضروري لإمكان عقد ارتباط جديد بينها وبين تعبير جديد في لغة ثانية. يفترض ذلك بالفكرة أن تتعرّى من ثيابها اللفظيّة الأولى وتمرّ بمرحلة ذهنيّة مجرّدة قبل ارتدائها حلّة جديدة، كأنّما الترجمة تقمّص للفكرة في وجودات مختلفة يسبق كلاً منها ومضة من الوجود الذهني الصافي. ولعلّ هذا الوجود الذهني بالذات هو القاسم الإنساني المشترك في كلّ فكرة. فهو يجعل منها ملكاً للإنسانيّة بأسرها إذ ينقلها من الصيغة المحلّية إلى شموليّة إنسانية عامّة.

تلك هي النكهة التي يستطيبها في النص كلّ إنسان أياً يكن إنتماؤه ولغته، وهي التي عبّر عنها الشاعر الروماني القديم Térence بقوله:

«أنا إنسان، ولا شيء ممّا هو إنساني بغريب عنّي»

من الطبيعي ألا يستمرّ الآخر على غيريته في عمليّة الفهم المتكاملة. فإن بقاءه

---

(٩)- المرجع نفسه.

(١٠)- د. طه عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص ٧٣.

على هذه الحال يعني استعصاءه على عمليّة الإستيعاب العقليّة. والواقع أن الإستيعاب يحوّل الآخر من الغيريّة المطلقة أو العصية إلى غيرية مدجّنة ومعقولة، وبتعبير آخر إلى حقيقة فرديّة تتآلف مع باقي الحقائق في إطار المحتوى العقلي الإنساني الشامل. بفعل معقوليّة الغيريّة تنتفي طبيعتها كغيريّة لتصبح مفهوماً إنسانياً مجرّداً وشاملاً على الصعيد الذهني على الرغم من استمرار فرادتها على صعيد التحقق العيني.

فضلاً عن ذلك لم يعد بالعسير على أحد اليوم أن يلاحظ تضاؤل المسافات بين البشر إلى حدّ التلاشي وتصاغر الحواجز إلى حد الزوال. تحت رقابة الأقمار الصناعيّة التي تمخر الفضاء متخطيّة بعيونها كل الجدران والعقبات مستبيحة خفايا الضمائر والستائر، وفي عهد التطور المذهل للمعلوماتيّة، يكاد يصبح بمتناول كل إنسان الإطلاع على تراث الإنسانيّة جمعاء. على الرغم من استمرار الفروقات واستعار الحروب والخلافات بين الناس، يشهد العالم على عتبة الألف الثالث تقارباً لم يشهد نظيره حتى الآن، مما يفرض الترجمة كضرورة حضارية ملازمة لهذا الإتجاه التقاربي لاسيما وان عملية الترجمة المتكاملة تعبّر فيما تعبّر عن احترام الغيريّة وتحويل كافة الغيريات إلى عناصر متنوعة لكنها متآلفة ضمن الحضارة الإنسانية الجامعة.

أجل إذا استعرضنا القرن العشرين على سبيل المثال لرأيناه قد شهد نشوب حربين عالميّتين في مقلبه الأوّل، وبروز هيئات عالمية جامعة كعصبة الأمم ومنظّمة الأمم المتّحدة ومتفرّعاتها على غرار محكمة العدل الدوليّة ومنظّمة الصحّة العالميّة واليونسكو، والمنظّمة العالميّة للأغذيّة والزراعة. وهو يشهد قبل انتهائه إقامة نظام عالمي جديد إن دلّ على شيء، على الرغم ممّا يكشفه من مساوىء في التطبيق، فعلى انفتاح البشر الواحد على الآخر وعلى ارتباطهم العضوي واللحمة الطبيعيّة بينهم. كل هذا يظهر بما لا يقبل الشك إن ما يجمع البشر جوهري ومايفرّقهم ظرفي وسطحي.

وإذا ما رجعنا إلى بعض التيارات الأدبيّة لرأيناها، على اختلاف اتجاهاتها وتعارضها، تتفق على أهميّة تعبيرها عن جوهر إنساني مشترك. تشكل هذه القناعة

أحد المنطلقات الأساسية للتيار الكلاسيكي الذي يرى «الأنا بغيضاً» ويتطلّع إلى سبر أغوار الطبيعة الإنسانيّة الدائمة والمشتركة بحيث يخاطب المحتوى الأدبي كل إنسان، في أي زمان ومكان وجد، فيفهمه ويقدّره حق قدره كما لو كان هو مؤلفه. حتى التيار الرومنطيقي الذي يتغنّى بفرادة «الأنا» التي يعبّر عنها ويتعمّد إظهار اختلافها ووحدانيتها، لا يتوانى عن الإكتشاف والكشف أن ما يظن اختلافات جوهرية لا يعدو كونه من القشور السطحية العابرة التي تخفي عمقاً إنسانياً واحداً ومشتركاً. فينتفض فيكتور هيغو مثلاً في مقدّمة «*تأملاته*» الوجدانية مخاطباً من يتّهمونه بالإختلاف: «ليس لأحد منا شرف امتلاك حياة خاصة به، حياتي حياتكم وحياتكم حياتي، تعيشون ما أعيشه، فالمصير واحد. خذوا إذن هذه المرآة وانظروا أنفسكم فيها. يتعرّض بعض الأحيان كتاب يقولون «أنا» للشكوى. ويصرخ لهم: كلّمونا عن ذواتنا. يا للأسف! عندما أكلمكم عن ذاتي، أكلمكم عن ذواتكم. كيف لا تشعرون بذلك؟ آه! أيها الجاهل، يا من تظن إنني غيرك»[١١]!

أجل إن الطبيعة واحدة وهذا ما يضفي الطابع الكلاسيكي في الواقع على الرومنطيقية نفسها. وما يجعلنا نقدّر ميل كل إنسان لاسيما الأديب إلى إبراز خصوصيته بكل صدق وفرادة لأن هذا الميل بالذات مشترك بين جميع البشر. من هنا لا بدّ للمرحلة الأولى في الترجمة التي تقوم على فهم الآخر في غيريته من الإفضاء إلى المرحلة الثانية التي تقضي بعد سبر أغوار الغيريّة بكشف ما تنطوي عليه من قاسم إنساني مشترك. وإنني لأرى في المعنى الذي يدركه العقل بمعزل عن اللغة التي تجلّى فيها غوصاً إلى العمق الإنساني الذي تعبّر عنه كل تجربة، وهو يضفي عليها قيمتها الحقيقيّة الثابتة والشاملة.

من هنا لا يحجمنّ أحد عن الترجمة بحجّة أنّ النص الأصلي ملك خاص ولا يجوز اعتباره ملكاً عاماً يحقّ لكل إنسان أن يفيد منه. طبعاً هناك حقوق مصطلح عليها بين البشر ولا بدّ من التقيّد بها لأسباب عديدة أهمّها احترام الغير وأقدس ما في ملكيّته: نتاج فكره وعصارة شخصيّته وإسهامه الشخصي في إغناء البشر، فضلاً

(١١) Victor Hugo, *Les Contemplations*, Préface, Classiques Larousse, p. 17.

عن الإلتزام بما يجمع عليه الناس دلالة من الملتزم على أنّه واحد من هؤلاء الناس يهمّه ما يهمّهم ويؤذيه ما يؤذيهم. لكن امتلاك فكرة صدرت ونشرت يتناقض ومنعها عن الآخرين أو حجبها عنهم بستار اللغة. وإلاّ، فلماذا أصدرت ونُشرت؟ بل إنّ احترام حقوق الغير والإلتزام بما يتّفق عليه البشر من قوانين وتنظيمات تنشد المصلحة العامّة لا يبرّران الإنعزال عن الغير ورفض التعاطي الحضاري معهم. تعبّر الرغبة في الترجمة عن موقف مبدئي يقوم على الإيمان بالتواصل الحضاري بين البشر. والأفكار ما إن تصدر عن أصحابها تصبح ملك الإنسانيّة. لا تزال أجيالنا تردّد قول المفكّر اللبناني وابن الأرز «جبران» لجميع الناس: أولادكم ليسوا لكم إنّهم أولاد الحياة. ولعلّنا نستطيع أن نضيف إلى قوله: أفكاركم ليست لكم إنّها ملك الإنسانيّة.

هكذا لا بدّ للمترجم عندما يكبّ على فهم نص معيّن، من التماهي مع شخصيّة مؤلّفه المغايرة ومن التجرّد عن ذاتيّته لعيش تجربة الغير بكامل غيريتها حساً وخيالاً وتفاعلاً إجتماعياً واختماراً شخصياً فريداً. لكن هذا المترجم المنفتح على الغير إلى حدّ تناسي خصوصياته الفرديّة والإجتماعية لا يلبث أن يدرك ما في هذه الغيرية بالذات من عمق إنساني يهمّه كما يمكن أن يهمّ كلّ إنسان أياً تكن لغته وثقافته وحضارته. إذّاك يشعر بمزيد من الدفع لإنجاز فعل الترجمة كاملاً، فيحرّر الأفكار من حيّز التعبير الأوّل الذي اتّخذته، لتستوي عند ذلك في عقله وجوداً ذهنياً شفّافاً فيه من التعبير الأوّل انعكاس بشكل صور ذهنيّة ومن الوجود اللاحق استباقات فكريّة تختمر قبل التقمّص في أجساد جديدة.

على هذا المستوى الذهني تنتفي الغيريّة والذاتيّة وتصبح الأفكار بنات العقل الإنساني الشامل مجرّدة عن الصفات اللغويّة الخاصّة والحلل المحلّية ويطلّ المترجم على آفاق فكريّة لا هويّة لها إلاّ أنّها إنسانيّة. إنطلاقاً من هذا الواقع تحرّر الترجمة المتمرّس بها من عقدة الإرتهان والتبعيّة للغير كما تحرّره كذلك من عقد العداء للغير والإنطواء على الذات ومن كلّ أنواع الإنغلاق والإنكماش والرفض. بعكس البلبلة التي أحدثها تضارب المصالح والأهواء والغرائز والمطامع في بابل، نرى رسل السيد المسيح بعد حلول الروح القدس عليهم في صبيحة العنصرة، يعلنون البشرى السعيدة للجماعات المختلفة التي كانت مجتمعة في بيت القدس، فإذا بكل جماعة

تفهم الرسالة في لغتها على الرغم من تعدد الألسنة كأن المعنى نفسه رسالة روحية موجهة إلى كافة الجماعات البشرية[١٢].

في الإطار نفسه، يختبر المترجم الشراكة الإنسانيّة على الصعيد الفكري فلا يعود التعدد الثقافي أو الحضاري يزعجه لأنّه يرى فيه تنوعاً في نتاج العقل المشترك بين كلّ البشر وانتفاءً لهيمنة الآحاديّة الفكريّة المتسلّطة. العقل يجمع البشر، والتنوّع في نتاجه يغنيهم بدل أن يفرّقهم. لذلك يؤلم المترجم أن يرى شعوباً تدّعي الريادة الحضاريّة تحجب عن غيرها آخر ابتكاراتها العلميّة والتقنيّة خوفاً من أن تلحق بها وتنافسها في ميادين تفوقها. من المعيب أن تحتكر أمم أو شعوب ما توصّلت إليه من علوم وتقنيات بتطويرها ما تلقّته من نتاج غيرها وإسهاماتهم العلمية والتقنية.

إذا كانت النهضة الغربية قد انطلقت ولا تزال ناشطة منذ أواخر القرن الخامس عشر دافعة بأوروبا وأميركا إلى مقدّمة الركب الحضاري، فإن اليد الطولى في إطلاق هذه النهضة تعود إلى الشرق الذي كان بدوره قد تقدّم المسيرة الحضارية بعد تطويره ما أخذه عن اليونان والفرس والهنود. لكل شعب، بل لكل إنسان الحق في الإفادة من مبتكرات العقل الإنساني في العالم، وللترجمة دورها الفاعل في مضمار تقريب الشعوب الواحد من الآخر والمساعدة على إزالة الفروقات بينها وإحلال ما إمكن من مساواة.

بالترجمة يمكن الإسهام في تعويض التفاوت العلمي والتقني والأخلاقي والفني والروحي بين البشر. وليس باستطاعة أيّة جماعة، مهما بلغ شأنها وعظم قدرها، الإنقطاع عن الغير. إنّ ادّعاء الإكتفاء لأوّل نقص في هذا الإكتفاء. من لم يكن بحاجة الى الآخرين على الصعيد العلمي أو التقني فهو بحاجة إليهم على الصعيد الأخلاقي والروحي. ولكل جماعة أن تضع إبداعاتها في أي من هذه الحقول وابتكاراتها في خدمة الإنسانيّة وتأخذ عبرها من إبداعات أيّة جماعة غيرها وابتكاراتها. وما تحجم عنه الجماعة قد يقوم به الفرد مترجماً أهم ما توفّره له الجماعات الأخرى من نتاج يفيد الإنسان كإنسان أينما وجد. وكلّما تقدّم إنسان

(١٢)- العهد الجديد، أعمال الرسل، الفصل الثاني.

تقدّمت معه الإنسانيّة بأسرها، لما بين جميع البشر على الرغم من سائر الإختلافات من أخوّة وشركة في الطبيعة الإنسانيّة الواحدة في جوهرها ومقوّماتها البنيويّة ومصدرها ومصيرها.

## ٣- الترجمة والذاتية

لا تكتمل عمليّة الترجمة إلاّ بإعادة صياغة المعنى الذهني وفق متطلّبات اللغة التي يترجم إليها. والترجمة الناجحة هي التي لا يشعر القارىء بأنّها ترجمة. بل تنسكب معانيها «المستوردة» من الغير في أطر اللغة الثانية بحيث يتزاوج المعنى والمبنى وينتج عن هذا التزاوج ولادة نص جديد، لا يستشف فيه التكيّف فحسب بل الإبتكار والإبداع. يعبر هذا الواقع عن عدّة حقائق على صعيد التعاطي الحضاري بين الأفراد والجماعات:

**الحقيقة الأولى**: في مستهلّ هذه الحقائق، إنّ احترامنا للغير في غيريّته، الواجب علينا في بدء عمليّة الترجمة، لا يمكن أن يتحوّل إلى ارتهان لهذا الغير أو تبعيّة. فالنص الذي لا تزال قوالب اللغة المصدر تشتم فيه ليس بترجمة موفّقة، لأنّ الترجمة لا يمكن أن تكون ذوباناً في الغير وتنكّراً للذات، بل هي استيعاب لأفكار الغير وتطويع لها بحيث تنصاع لصيغ اللغة الجديدة. صحيح أن المرحلة الأولى في عمليّة الترجمة المركّبة تقضي بفهم الغير في ذاتيته كآخر مغاير للذات الفاهمة. لكن المرور بالمرحلة الثانية يشكل نوعاً من المصهر العقلي الذي يزيل عن الوجودات الفردية طابعها الخاص ويرتفع بها إلى مصاف الوجودات الذهنية المجرّدة الشاملة، فيسهل استيعابها وتحويلها إلى معادلات متجدّدة. يبقى أن إكمال المعادلة يقضي في مرحلة الترجمة الثالثة أن يعاد صهر المعاني لإخراجها جديدة تنبض بالحياة كما في المرّة الأولى التي أظهرتها فيها عبقرية مؤلّفها. إلا إن الإبتكار الفني الجديد لشكل هذه الأفكار القديمة المتجدّدة لا يفترض بالضرورة اقتناع المترجم بمحتواها. لا قناعة صحيحة إلا بعد الشك والتمحيص والتحليل والنقد. ومن كان النقد العلمي والموضوعيّة سلاحه، باستطاعته أن يتعامل ثقافياً مع الغير دون عقد نقص أو استعلاء، فلا يتملّكه العداء لهم ولا الإرتهان. الإبداع الذاتي شرط أساسي لإخراج

المعاني المترجمة في قوالب جديدة. والترجمة لا تعني حتماً الإنصياع الحضاري للأفكار المترجمة. بل قد ينتج عن الفهم الصحيح للآخرين الحذر مما تحتويه أفكارهم من مخاطر. والفوائد تكون في هذه الحال مضاعفة: إيجابيّة تقوم على استيعاب الحسنات والتمثّل بها، وسلبيّة تقضي بتوخي الحذر وتحاشي السيئات. نقرأ في مقال لـ ألكسي نوس Alexis Nouss يتأثر بالمفكر الإلماني G. Gadamer: «في عمليّة الفهم، أفهم ذاتي، وانطلاقاً من هنا أدفع بالعالم الذي أنتمي إليه في عمليّة الفهم هذه. إذ أترجم ذاتي في فعل ترجمتي وبه. . . المترجم هو الذي يعطي معنى للنص الذي يترجمه، ليس فقط لأنّه يتقبّله في لغة وثقافة مغايرتين بل لأنه، في هذا المسار، يخضعه لدينامية حوارية»[١٣].

ليعتبرن بهذه الحقيقة إذن من يتنكرون لذواتهم في عمليّة التعاطي الحضاري، المرتمون في أحضان الغير دونما حذر. لا ليس صحيحاً ما تعوّدنا على قوله في أمثالنا العاميّة، ولا سلوكنا العام الذي يعبّر عن عقدة نقص نابعة من الإنحطاط الذي ألمّ بنا والإستعمار الذي خضعنا له، والجهل الذي أطبق علينا: من العار القول المتسرّع بأنّ «كل فرنجي برنجي». لست بصدد تحريض على الإنفتاح الحضاري. لكن الإنفتاح لا يعني التهافت، والترجمة ليست نقلاً آلياً أو حرفياً. احترام الغير في غيريته واجب. لكنه لا يقوم على التضحية بالذات في سبيل الغير. ليس في شروط التحضّر أن يتغرّب المرء عن ذاته وقيمه وحضارته. لا تقضي الترجمة بأن تصبح الغيريّة ذاتيتنا، بل أن ترتقي ذاتيتنا إلى استيعاب الغيريّة والحوار معها.

**الحقيقة الثانية**: إنّ الترجمة الموفّقة لا تتوقف على صياغة الأفكار الصادرة عن الغير في قوالب اللغة الجديدة. لو كانت الترجمة كذلك، لأمكن إحلال الآلة مكان المترجم دونما تشكيك ولا حذر بينما تظهر الوقائع «أن الآلة المترجمة لا تستطيع أن تحلّ محلّه»[١٤]. هذه هي خلاصة الاستقصاء الذي قام به جورج مونان

---

(١٣)– Alexis Nouss, *Une traduction n'est pas une application: Réponse au Professeur Dasgopta*, in Meta, XXXIX, 2, 1994, p. 388.

(١٤)– جوزيف شريم، منهجيّة الترجمة التطبيقيّة، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤١.

حول البحث في الترجمة الآلية، والإنطباع الذي خرج به في كتابه *La machine à traduire* حيث يقول: «دخلت دراسات الترجمة الآلية { . . . } طور «البحث الصامت الذي يحدثنا عنه بانوف (Panov) وهوطور يتصف أيضاً وغالباً بالإقرار الصامت بالفشل وذلك بعد أن كانت فرق الباحثين قد ولدت وتكاثرت بين سنة ١٩٥٠ و ١٩٥٨» [١٥]. ولا غرابة فالإنطباع نفسه تكوّن لدى السلطات الأميركية التي كلّفت سنة ١٩٦٤ هيئة خاصة ALPAC (Automatic Language Processing Advisory Committee) إجراء تحقيق حول فعاليّة الترجمة الآليّة، فكان «وقع التقرير كالكارثة، ربما بفعل تأثير العديد من النقّاد والمشككين الذين تناولوا بالسخرية المجال بكامله» [١٦]. ولم يتحسّن الأمر كثيراً في أيّامنا هذه، حيث نقرأ في مرجع صدر مؤخراً عن الترجمة الآليّة: «في الوقت الحاضر، لا تزال الترجمة الآليّة الكاملة وذات المستوى الرفيع، هدفاً بعيد المنال» [١٧]. والأمر طبيعي لأن «الترجمة ليست انتقالاً مبتذلاً من لغة إلى أخرى» [١٨]. بل يبقى دور المترجم جوهرياً إذ يتوجّب عليه «إزاء عمليّة صعبة كعمليّة الترجمة، أن يلعب دوراً مهماً وأن يستنجد بكل كفاءاته الألسنية والذهنية وبمعرفته بالحضارة أيضاً ليتمكن من نقل النص الذي هو بصدد ترجمته نقلاً دقيقاً وأميناً وذلك قدر المستطاع» [١٩].

في الحقيقة، تقتضي الترجمة استنهاضاً لطاقات الذات الخلاقة وتخطياً لحدودها المألوفة والعاديّة، وتفعيلاً لكافة إمكاناتها بحيث تصبح قادرة على استيعاب كلّ جديد. ليطمئن إذن أنصار الذاتيّة، الحريصون على نقاوة الجذور، ورافضو الإنفتاح الحضاري على الغير خوفاً من التغرّب عن الذات وفقدان الشخصيّة المميّزة. ليطمئن هؤلاء فالترجمة الموفّقة هي بعكس ما يتوجسونه منها سوءاً وغدراً. إنّها

---

(١٥)– Georges Mounin, *La machine à traduire*, London. The Hague, Paris, Morton and Co. 1964, p. 196 نقلاً عن جوزيف شريم، المرجع نفسه، ص ٤٢.

(١٦)– Pierrette Bouillon-André Clas, *La traductique*, Les Presses de l'Université de Montréal, AUPELF / UREF, Canada 1993, p. 17-18.

(١٧)– المرجع نفسه، ص ١٥.

(١٨)– المرجع نفسه، ص ١٢.

(١٩)– جوزيف شريم، المرجع نفسه، ص ٤٢.

حفاظ على الذات وعمل دائم على تطويرها ودفعها في سبيل الرقي والتقدّم. لا يكون الحفاظ على الذات بسجنها متقوقعة على نفسها وإبقائها متجمّدة في عزلة خارج الزمن والحياة. أفضل حفاظ على الذات يكون بتقويتها وتنشيطها بحيث تقدر على مواجهة الغير واستيعاب الصالح لديهم ورفض المسيء. يكون الحفاظ على الذات بترقيتها والسير بها في مقدّمة الركب الحضاري بحيث تأخذ من الآخرين ما ينقصها وتمنحهم من عنداياتها ما يغنيهم. يثمر لقاء الآخرين على الصعيد الفكري إذا حافظنا على توازن الذاتيّة والغيريّة وتفاعلهما.

أكثر من ذلك، لا تقتصر فائدة الترجمة الصحيحة على إلزام المترجم بالتعبير الذاتي عن المعاني التي ينقلها. بل هي تؤهله إلى الإبداع الذاتي. إنّه، خلافاً للمترجم التحصيلي والمترجم التوصيلي، كـ «المترجم التأصيلي... الذي ينقل النص الفلسفي على مقتضى التأصيل، لا فارق بينه وبين المؤلّف سوى أن هذا ينشىء إبتداءً من نصوص متفرقة معلومة وغير معلومة دامجاً بعضه في بعض. وحينما يظفر المتلقي بنقول محكمة أشبه ما تكون بأصول مستقلّة، ويسرع في النظر فيها على مقتضى التأصيل الذي استوفي فيها، فإنه لا محالة صائر إلى الإنتفاع بها على الوجه الذي ينتفع به من نصوص مأصولة، وإذا كان هذا الإنتفاع الثاني قد يوصله إلى أن يضع مثلها، تأسيساً وإبداعاً، فإن الإنتفاع الأول هو أيضاً من شأنه أن يمكنه من القدرة على وضع النصوص الفلسفية الأصلية، وإلا فلا أقل من أن يخلق فيه القدرة على التفلسف الحي الباعث على اليقظه الفكريّة الصحيحة»[٢٠]. وهذا ما يقودنا إلى الحقيقة الثالثة.

**الحقيقة الثالثة:** إنّ الترجمة تبقى سبيلنا الأقرب إلى مواكبة العصر والإنسانيّة المتقدّمة على طرق المدنيّة. عبر الترجمة، أفاد العرب في ما مضى من تراث اليونان والفرس واليهود والسريان والأتراك. ولم يمنعهم تعاطيهم الحضاري مع الغير من الحفاظ على ذاتيتهم واستنهاض قواها الإبداعيّة بحيث حقّقت المعجزات. لم تنل الترجمة من قدرة العرب على الخلق بل حفزتهم على الإبتكار وقيادة الركب

(٢٠)– د. طه عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص ٣٦٢.

الحضاري. أثمر التفاعل بين عجينهم والخمير الذي استمدّوه من الغير تفجّر طاقات هائلة أسهمت في تقدّم البشريّة بأسرها، وأدّت فيما أدّت، ليس فقط إلى تطوّر الإنسان العربي بل إلى تحريك النهضة لدى الغربيين أنفسهم. واليوم يحتاج العرب إلى نهضة مماثلة وعلى هذا الأساس يجب أن يتطلّعوا إلى الترجمة ويمارسوها لاستلحاق أنفسهم في ميادين السباق التقني والعلمي.

في ذروة النهضة الأوروبية التي استقت من مصادر مختلفة دونما خوف على هويتها وأصالتها، طالعنا أحد أعلام هذه النهضة Montaigne بأفكار تربوية في غاية الأهميّة، داعياً المربيّ إلى حثّ الطالب على غربلة المعلومات التي يتلقاها وتصفيتها بحيث لا تعود أفكار Xénophon وأفلاطون التي يعتنقها في خطابه، أفكارهما بل أفكاره، لأن «من يتبع آخراً لا يتبع شيئاً... لِينس بشجاعة، إذا أراد، من أين جاء بها، وليعرف كيف يجعل منها أفكاراً تخصّه. إن الحقيقة والصواب مشتركان بين كل الناس. ليسا لمن قالهما أولاً بقدر ما هما لمن يقولهما لاحقاً. والرأي ليس رأي أفلاطون بقدر ما هو رأيي، لأنني وإياه نفكّر به ونراه بذات الطريقة. تستلب النحلات رحيق الورود من هنا وهناك وتجعل منه فيما بعد عسلها، ولا يستمر صعتراً ولا ريحاناً»[٢١]. بليغ هذا الرأي في التثقّف والتعامل مع الآخرين، وأبلغ ما فيه أن عمل الأوروبيين به قد أنجح نهضتهم وجعل منها خلاصة جهود الإنسانية الحضارية، فما أجدر بكل شعب وبالعرب أن يضاهوهم اليوم باعتمادهم الترجمة سبيلاً قويماً لاعتصار ما وصلت إليه الإنسانيّة من تقدّم وتطوّر ومن ثمّ بالتزامهم الإبداع إنطلاقاً من شخصيتهم المشبعة بتراث الإنسانيّة جمعاء. يقودنا هذا إلى الحقيقة الرابعة وهي أن الترجمة تفترض امتلاك اللغات الأجنبية امتلاكاً كلياً للتمكن من فهم النصّ الآخر فهماً وافياً يتيح فيما بعد تحليله ونقده واستيعاب ما يرضى به العقل في صلب الثقافة الذاتية.

**الحقيقة الرابعة:** من نافل القول إنّ الترجمة لا تعفي من امتلاك اللغات الأجنبيّة مختزنة الكنوز الثقافيّة وآخر الإختراعات والمبتكرات، بل هي تفترض هذا

---

(٢١)- Montaigne, *Essais*, extraits II, Classiques Larousse, p. 79.

الإمتلاك لأنّه دون اتقان اللغات لا ترجمة. إلاّ أنّ هذا الإمتلاك صعب التحقيق لدى كل فئات الشعب وفي كافة مستويات التعليم، اللهّم إذا استثنينا الجامعيّة منها. ولئن تحقق فهو يؤدي بالبعض من ضعيفي الإنتماء إلى الإنفصام الثقافي أو الضياع والإغتراب عن الذات فضلاً عن الإنحراف الإجتماعي أو العزلة عن مجتمعهم المحلي. لذلك لا بدّ من أن يؤدي امتلاك اللغات إلى الترجمة ليتثقّف جميع الناس ويفيدوا من نتاج العقل الإنساني دونما تفريط بذاتيتهم أو تنكّر لتراثهم.

أكثر من ذلك، على المترجم إتّقان لغة الأصل إتقاناً شبه كلّي لأنها سبيله إلى فهم الغيريّة بكل أبعادها، وكذلك عليه اتقان لغة التعبير بطريقة مماثلة لأنها سبيله إلى الإبداع الذاتي. تقول Marianne Lederer في تمهيدها لكتاب Danica Seleskovitch: «يحدّد وفاء الترجمة أولاً بقيمة معادلتها للمعاني التي يعبّر عنها النص الأصلي، ثم بتكيّفها مع أساليب اللغة التي تستخدمها. يحكم المعيار الأول على صحتها ودقتها بينما يحكم الثاني على مفهوميتها»[٢٢]. لا بدّ إذن من اتقان اللغتين. هذا ما يتضح من الدراسات الألسنية الحديثة. يقول جورج مونان: «تقودنا الألسنيّة الداخليّة الحديثة جداً إلى إدراك أن كل لغة تقتطع من الواقع الواحد وجوهاً مختلفة، وإن لغتنا هي التي تنظم رؤيتنا للعالم، وإننا لا نرى من العالم غير ما ترينا لغتنا، مع كل ما تستبقه هذه النظريات من عواقب تتعلّق بنظريّة الترجمة. لكن الألسنيّة الخارجية – التي تعتمد على علم الإجتماع كعلم مساعد – تضيف إلى ما تذكره الألسنيّة الداخليّة أسباباً أخرى للتشكيك بشرعية الترجمة وبصحّتها أيضاً. لا تتحلل التجربة الواحدة للعالم بشكل يختلف باختلاف اللغات وحسب بل تحمل الانتروبولوجيا الثقافية والاتنولوجيا على التفكير (ضمن حدود ينبغي توضيحها) بأن البنى اللغوية المختلفة لا تعبّر دائماً عن العلم نفسه. ويسلّم الناس اليوم بوجود «ثقافات» (أو حضارات) عميقة الإختلاف وتشكّل، لا عدداً يساويها من «رؤى العالم» المختلفة، بل عدداً يساويها من «العوالم الحقيقية المختلفة»[٢٣].

---

(٢٢)– Marianne Lederer, *Etudes traductologiques en hommage à Danica Seleskovitch*, Paris, Minard, 1990, p. 9.

(٢٣)– جورج مونان، المسائل النظريّة في الترجمة، ترجمة لطيف زيتوني، دار المنتخب العربي – بيروت ١٩٩٤ ص ١٠١.

طبعاً، يزيد هذا الواقع من صعوبة الترجمة لكنه يظهر بما لا يقبل الشك أهميّة اتقان اللغات لتعاطيها، ومن ثمّ الغنى الحضاري الذي ينجم عن امتلاك المترجم للغتين وممارسته لهما في عمليّة فهم الغير على اختلافه وعمليّة استخلاص الجوهر الإنساني المشترك الكامن وراء أيّة تجربة إنتهاءً إلى عمليّة التعبير الذاتي عن هذا الجوهر. فضلاً عن ذلك لا تعفي صعوبة الترجمة من واجب اتقانها ولا يبرّر واقع الغيرية انغلاق الذاتية على نفسها وتمنّعها عن اللقاء الحضاري مع سائر الذاتيات المغايرة والمماثلة في الوقت نفسه أقلّه في طابعها الغيري. فلئن كانت الذاتيات الفرديّة والجماعيّة والرؤى والعوالم واللغات مختلفة، فلا يحول ذلك دون تلاقيها. ولئن كان نجاح الترجمة محدوداً أو نسبياً فهذا لا يجعلها مستحيلة بل يحفز على إزالة الصعوبات والحواجز الوهميّة والفعليّة من أمامها ومن ثم ممارستها بواقعيّة وحكمة شجاعة. «فعوضاً عن أن نقول، مثل الممارسين القدماء للترجمة، إن الترجمة ممكنة دائماً أو مستحيلة دائماً، كاملة دائماً أو ناقصة دائماً، انتهت الألسنيّة المعاصرة إلى تعريف الترجمة كعمليّة نسبيّة من حيث نجاحها، متغيّرة من حيث مستويات الإتصال التي تبلغها. يقول نيدا: «تقوم الترجمة على إيجاد العديل الطبيعي الأقرب إلى الأصل في اللغة المنقول إليها، من ناحية الدلالة أولاً ثم من ناحية الأسلوب». إن تجميد هذه الصيغة والإعتماد بأن لكل رسالة ترجمة واحدة نهائية في كل لغة، هو نظرة ثنائية مضادة للجدليّة. ويمكن للترجمة دائماً أن تبدأ بالمواقف الأشد وضوحاً وبالرسالة الأقرب إلى المحسوس والكليات الأوليّة جداً. ولكن إذا كان المقصود من البحث عن المواقف المشتركة، ومن مضاعفة الإحتكاكات التي من شأنها التوضيح، هو اللغة جملةً – بما فيها رسائلها المغرقة جداً في الذاتية – فلا شك في أن الإتصال بواسطة الترجمة لا يكتمل في الحقيقة. وهذا يعني في الوقت نفسه أن الترجمة ليست مستحيلة»[٢٤].

(٢٤)– جورج مونان، المسائل النظرية في الترجمة، المرجع نفسه، ص ٣١٠.

## خاتمة

في الختام يمكن القول إن الترجمة تقضي باتقان اللغات وتوجب استيعاب الغيريّة في صلب الذاتيّة. تغني الشخصيّة ولا تضحي بها كما لا تقبل بالإرتهان أو التبعيّة. من خلالها يتحقق الإحترام الصحيح للغير وللذات على السواء. عوض التعدديّة الثقافيّة التي قد تزرع في قلب الفرد أو داخل المجتمع انفصاماً وتمزّقاً، حتى عداءً وصراعاً، تعمل الترجمة على ترسيخ ثقافة واحدة تعددية بروافدها وأبعادها. تحوّل الثنائية والتعددية إلى تفاعل وتكامل. لا تمتنع عن التعاطي الحضاري مع الغير ولا تذوب فيهم. تربأ أن يقتصر عملها على التحصيل الآلي أو التوصيل الإرتهاني بل تحرص على أن يؤدي إلى التأصيل الإبداعي. تعمل بما يشير إليه Montaigne في نصائحه التربويّة التي تقضي بمعاشرة الناس والسفر «لصقل عقلنا بمقابلته مع عقل الآخرين»[٢٥]. كل ترجمة سفر في عالم غير عالمنا واحتكاك بذهنية الآخرين، وتفاعل مثمر بين غيريّة وذاتية. ولعلّها بذلك خير نموذج للعلاقات بين البشر، يحافظ على التوازن بين الذات والآخرين. لنترجم إذاً دونما خوف أو تعالٍ، فالترجمة في المرحلة الراهنة أفضل وسيلة لإغنائنا. تفرض علينا احتراماً للغير بعيداً عن العقد ومركبات النقص والإستعلاء وتفجّر الطاقات الإستيعابية والخلاّقة في شخصيتنا المتفاعلة مع الحضارات بثقة وانفتاح والمتطلّعة إلى ثقافة واحدة وتعدّدية على السواء. وعندما يتوفّر لنا هذا الغنى، نتمكّن من إغناء الغير بدورنا، بالتراث الروحي والقيم الإنسانيّة التي هي ثروتنا الحاليّة والقديمة، وإذا الله قدّرنا وعقدنا العزم بالإنجازات التقنيّة والإبداعات العلميّة.

---

(٢٥)– Montaigne، المرجع نفسه، ص ٨١.

# المصادر والمراجع


١- Pierrette Bouillon - André Clas, *La Traductique*, Les Presses de l'Université de Montréal, AUPELF / UREF, Canada, 1993.

٢- د. طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة: ١- الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥.

٣- د. محمّد عناني، فن الترجمة، مكتبة لبنان، طبعة ثانية، ١٩٩٤.

٤- Victor Hugo, *Les Contemplations*, Classiques Larousse.

٥- جوزف شريم، منهجيّة الترجمة التطبيقيّة، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢.

٦- Montaigne, *Essais*, extraits II, Classiques Larousse.

٧- جورج مونان، المسائل النظريّة في الترجمة، ترجمة لطيف زيتوني، دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٩٤.

٨- Marianne Lederer, *La traduction aujourd'hui*, Hachette, 1994.

٩- Jean-Claude Gémar, *Traduire ou l'art d'interpréter*, Presses de l'Université de Quebec 1995, 2 tomes.

١٠- Meta, XXXIX, 2, 1994.

١١- Marianne Lederer, *Etudes traductologiques en hommage à Danica Seleskovitch*, Paris, Minard, 1990.